مقدمة

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما يحب ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

أما بعد:

فهذا شرح محرر على كتاب القواعد الأربع للإمام محمد بن عبد الوهاب النجدي رحمه الله وغفر له، كتبته قديمًا لتدريسه لبعض الطلاب في دار الحديث بدماج وأسميته آنذاك: **بالتاج المرصع على القواعد الأربع**؛ وطالعته مرارًا للتعديل عليه وتقرر على هذه الصورة نسأل الله أن ينفع به.

وقد استفدت من كثير من الشروح لهذا الكتاب، ورجعت لمصادر بعضها ونقلت منه، ومن مصادر أخرى، وكم ترك الأول للآخر، وحاولت عدم الإطالة إلا لفائدة لطيفة، وتكملة لازمة تتمم المقصود.

وكتبه:

أبو عبد العزيز

تركي بن مسفر مجلي العبديني

بسم الله الرحمن الرحيم

بدأ الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- بالبسملة كسائر كتب أهل العلم وكتاباتهم ومراسلاتهم لأمور:

شرح البسملة

الأول: اقتداء بكتاب الله، فالبسملة أول آية في القرآن الكريم، افتتح الصحابة رضي الله عنهم المصحف العثماني بها، فأراد الشيخ رحمه الله التبرك باسم الله عز وجل في الابتداء، والاستعانة به سبحانه وتعالى فيما يؤمله من علم يكتبه في هذه الرسالة وغيرها.

الثاني: التأسي، والاقتداء، والاتباع، والاقتفاء لأثر وطريقة النبي صلى الله عليه وسلم في مكاتباته ومراسلاته التي كانت تكتب إلى الملوك وغيرهم يدعوهم النبي صلى الله عليه وسلم لدعوة الإسلام، فيأمر الكاتب فيكتب: بسم الله الرحمن الرحيم كما في صحيح ا لبخاري في قصة هرقل.

الثالث: استقرار عمل الأئمة والعلماء والمصنفين على افتتاح كتب العلم بالبسملة.

كما نقله ابن حجر -رحمه الله-[1]، وغيره.

---

(١) في فتح الباري شرح صحيح البخاري(١/٩).

[شرح معنى الولاية وأقسامها]

قال - رَحِمَهُ اللهُ -: أَسْأَلُ اللهَ الْكَرِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَتَوَلاكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

ثَنَّى - رَحِمَهُ اللهُ - كعادته في رسائله بالدعاء لمن يقرأ هذه الرسالة أو يسمعها، واشتمل على ثلاث دعوات جامعة:

شرح معنى الولاية وأقسامها

الأولى: (أَسْأَلُ اللهَ الْكَرِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَتَوَلاكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ).

وأصل الولاية: المحبة والقرب كما يقول شيخ الإسلام - رَحِمَهُ اللهُ -(١).

❖ **وتنقسم الولاية إلى قسمين:**

١- ولاية من الله - عَزَّ وَجَلَّ - للعبد.

٢- وولاية من العبد لله - عَزَّ وَجَلَّ -.

والشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - قصد الولاية من الله لعبده المؤمن.

- **فمن ولاية الله للعبد: قوله تعالى:** ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].
- **ومن ولاية العبد لله: قوله تعالى:** ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦].

❖ **والولاية التي من الله للعبد تنقسم إلى:**

(١) في الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص(٥٤٠).

١- ولاية عامة. ٢- وولاية خاصة.

- **فالولاية العامة** هي: الولاية على العباد بالتدبير والتصريف، وهي شاملة للمؤمن والكافر، وجميع الخلق كما **قال الله ﷻ**: ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾ [الأنعام: ٦٢].

- **والولاية الخاصة** هي: أن يتولى الله عبده المؤمن بعنايته وتوفيقه وتسديده وهدايته، وهي خاصة بالمؤمنين كما **قال ﷻ**: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقال ﷻ: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣][(١)].

أفضل الأولياء

أفضل أولياء الله وطبقاتهم

- ❖ **وأفضل أولياء الله** هم أنبياؤه.
- ❖ **وأفضل أنبيائه** هم المرسلون منهم.
- ❖ **وأفضل المرسلين**: أولوا العزم وهم على المشهور: (نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد -صلوات الله وسلامه عليهم-).

---

(١) انظر: «القول المفيد في شرح كتاب التوحيد» لابن عثيمين (٢/٣٤٢-٣٤٣).

قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾[الشورى: ١٣]

وقال تعالى: ﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴾ [الأحزاب: ٧].

❖ **وأفضل أولي العزم**: محمد -ﷺ- خاتم النبيين، وإمام المتقين، وسيد ولد آدم.

❖ **وأولياء الله على طبقتين**:

أ- سابقون مقربون. ب- وأصحاب يمين مقتصدون.

- **فالأبرار؛ أصحاب اليمين هم**: المتقربون إليه بالفرائض، يفعلون ما أوجب الله عليهم، ويتركون ما حرم الله عليهم، ولا يكلفون أنفسهم بالمندوبات، ولا الكف عن فضول المباحات.

- **وأما السابقون المقربون**: فتقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض، ففعلوا الواجبات، والمستحبات، وتركوا المحرمات، والمكروهات، فلما تقربوا إليه بجميع ما يقدرون عليه من محبوباتهم أحبهم الله حبًا تامًا كما قال الله ﷻ في الحديث القدسي: «.. **وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ**[(١)]». يعني: الحب المطلق[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضى الله عنه.

(٢) أفاد ذلك شيخ الإسلام في الفرقان ص (٥٤٠).

❖ فائدة:

قال ابن القيم[(١)]: الولاية هي القرب من الله ﷻ فولي الله هو القريب منه؛ المختص به، والولاء في اللغة: القرب؛ ولهذا علامات، وأدلة، وله أسباب، وشروط، وموجبات، وله موانع، وآفات، وقواطع؛ فلا يعلم العبد هل هو ولي الله أم لا؟ **ثم قال**: والذي يظهر لي من ذلك أن ولاية الله تعالى نوعان: عامة، وخاصة، **فالعامة**: ولاية كل مؤمن فمن كان مؤمنًا لله تقيًا كان له وليًا وفيه من الولاية بقدر إيمانه وتقواه ولا يمتنع في هذه الولاية أن يقول أنا ولي إن شاء الله كما يقول أنا مؤمن إن شاء الله.

والولاية الخاصة: إن علم من نفسه أنه قائم لله بجميع حقوقه مؤثر له على كل ما سواه في جميع حالاته قد صارت مراضي الله ومحابة هي همه ومتعلق خواطره يصبح ويمسي وهمه مرضاة ربه وإن سخط الخلق فهذا إذا قال أنا ولي الله كان صادقًا.

❁ 📖 ❁ قال -رَحِمَهُ اللَّهُ-: «وَأَنْ يَجْعَلَكَ مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتَ».

شرح معنى البركة

هذا هو الدعاء الثاني من الشيخ -رَحِمَهُ اللَّهُ-(وَأَنْ يَجْعَلَكَ مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتَ).

وهو اقتباس اقتبسه الشيخ من القرآن الكريم من كلام عيسى-عَلَيْهِ السَّلَامُ- في المهد كما **قال عنه الله ﷻ**: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾[مريم: ٣١].

---

(١) بدائع الفوائد لابن القيم، ط/دار عالم الفوائد (٣/ ١٠١٤)

يعني: بتعليم الناس الخير، والهدى، والعلم، والقيام بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر[١].

قال -رَحِمَهُ اللَّهُ-: وَأَنْ يَجْعَلَكَ مِمَّنْ إذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أذنبَ اسْتَغْفَرَ، فَإِنَّ هَؤُلاءِ الثَّلاثُ عُنْوَانُ السَّعَادَةِ.

هذا هو الدعاء الثالث من الشيخ -رَحِمَهُ اللَّهُ-.

وتضمن ثلاثة أحوال لا ينفك عنها العبد -كما ذكر ابن القيم- رَحِمَهُ اللَّهُ-

وهي: النعمة، والبلية، والذنب[٢].

شرح
الحال الأول

أحوال لا ينفك عنها العبد

❖ **فالحال الأول: شكر النعمة؛ فالنعمة لا ترعى إلا بالشكر.**

وشكر النعمة مبني على أركان ثلاثة:

- الاعتراف بها باطنًا. - والتحدث بها ظاهرًا.
- وتصريفها في مرضاة وليها، ومسديها، ومعطيها، فإذا فعل ذلك فقد شكرها مع تقصيره في شكرها[٣].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير عند الآية.

(٢) الوابل الصيب ص ١١ .

(٣) الوابل الصيب ص ١١.

والشكر على ثلاثة أضرب:

١- شكر بالقلب، وهو تصور النعمة.

٢- وشكر باللسان، وهو الثناء على المنعم.

٣- وشكر بالجوارح، وهو مكافأة النعمة بقدر استحقاقه(١).

وأصل الشكر هو: الاعتراف بإنعام المنعم على وجه الخضوع له والذل والمحبة. فمن لم يعرف النعمة بل كان جاهلًا بها لم يشكرها. ومن عرفها ولم يعرف المنعم بها لم يشكرها أيضًا. ومن عرف النعمة والمنعم لكن جحدها كما يجحد المنكر لنعمة المنعم عليه بها فقد كفرها. ومن عرف النعمة والمنعم وأقر بها ولم يجحدها ولكن لم يخضع له ويحبه ويرضى به وعنه لم يشكرها أيضًا. ومن عرفها وعرف المنعم بها وخضع للمنعم بها وأحبه ورضي به وعنه واستعملها في محابه وطاعته فهذا هو الشاكر لها. فلا بد في الشكر من علم القلب، وعمل يتبع العلم، وهو الميل إلى المنعم، ومحبته، والخضوع له(٢).

فالشكر مبني على خمس قواعد:

١- خضوع الشاكر للمشكور. ٢- وحبه له.

٣- واعترافه بنعمته. ٤- والثناء عليه بها.

٥- وأن لا يستعملها فيما يكره.

---

(١) تاج العروس (١٢/ ٢٢٥).

(٢) طريق الهجرتين، لابن القيم، ت/ عمر بن محمود (ص ١٦٨).

هذه الخمسة هي أساس الشكر، وبناؤه عليها، فإن عدم منها واحدة اختلت قاعدة من قواعد الشكر[(١)].

❊❊❊

شرح الحال الثاني

والحال الثاني من الأحوال التي لا ينفك عنها العبد: البلية.

كما قال ابن القيم: محن من الله تعالى يبتليه بها ففرضه فيها الصبر والتسلي. والصبر: حبس النفس عن التسخط بالمقدور، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن المعصية كاللطم، وشق الثياب، ونتف الشعر، ونحوه. فمدار الصبر على هذه الأركان الثلاثة، فإذا قام بها العبد كما ينبغي انقلبت المحنة في حقه منحة، واستحالت البلية عطية، وصار المكروه محبوبًا؛ فإن الله ﷻ لم يبتله ليهلكه، وإنما ابتلاه ليمتحن صبره وعبوديته، فإن لله تعالى على العبد عبودية الضراء، وله عبودية عليه فيما يكره كما له عبودية فيما يحب، وأكثر الخلق يعطون العبودية فيما يحبون، والشأن في إعطاء العبودية في المكاره، ففيه تفاوت مراتب العباد، وبحسبه كانت منازلهم عند الله تعالى[(٢)].

---

(١) تاج العروس (١٢/ ٢٢٥).

(٢) في الوابل الصيب(ص: ١١).

فالشكر واجب، وترك الواجب حرام، وفي شغل النفس بفعل الواجب صبر عن فعل الحرام، والحاصل أن الشكر يتضمن الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية.

قال بعض الأئمة: الصبر يستلزم الشكر لا يتم إلا به، وبالعكس فمتى ذهب أحدهما ذهب الآخر، فمن كان في نعمة ففرضه الشكر والصبر.

أما الشكر فواضح، وأما الصبر فعن المعصية، ومن كان في بلية ففرضه الصبر، والشكر. أما الصبر فواضح، وأما الشكر فالقيام بحق الله عليه في تلك البلية فإن لله على العبد عبودية في البلاء كما له عليه عبودية في النعماء.

ثم الصبر على ثلاثة أقسام:

صبر عن المعصية فلا يرتكبها.

وصبر على الطاعة حتى يؤديها.

وصبر على البلية فلا يشكو ربه فيها، والمرء لا بد له من واحدة من هذه الثلاث فالصبر لازم له أبدًا لا خروج له عنه، والصبر سبب في حصول كل كمال[(١)].

❋❋❋

شرح الحال الثالث

والحال الثالث من الأحوال التي لا ينفك عنها العبد: الذنب.

---

(١) فتح الباري لابن حجر (١١/ ٣٠٥).

وفرضه حينئذ: الاستغفار والتوبة.

وحقيقة التوبة: هي الندم على ما سلف منه في الماضي، والإقلاع عنه في الحال، والعزم على ألا يعاوده في المستقبل.

والثلاثة تجتمع في الوقت الذي تقع فيه التوبة، فإنه في ذلك الوقت يندم، ويقلع، ويعزم. فحينئذ يرجع إلى العبودية التي خلق لها، وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة، ولما كان متوقفًا على تلك الثلاثة جعلت شرائط له[(١)].

فشرائط التوبة: الندم، والاقلاع، والاعتذار.

«**فأما الندم**: فإنه لا تتحقق التوبة إلا به.... **وأما الإقلاع**: فتستحيل التوبة مع مباشرة الذنب.. **وأما الاعتذار**: فهو إظهار الضعف والمسكنة، وغلبة العدو، وقوة سلطان النفس، وأنه لم يكن مني ما كان عن استهانة بحقك، ولا جهلا به، ولا إنكارا لاطلاعك، ولا استهانة بوعيدك، وإنما كان من غلبة الهوى، وضعف القوة عن مقاومة مرض الشهوة..... ونحو هذا من الكلام المتضمن للاستعطاف، والتذلل، والافتقار، والاعتراف بالعجز، والإقرار بالعبودية. فهذا من تمام التوبة. **فالتوبة المقبولة الصحيحة لها علامات**:

منها: أن يكون بعد التوبة خيرًا مما كان قبلها.

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ١٩٩- ٢٠٠).

ومنها: أنه لا يزال الخوف مصاحبًا له لا يأمن مكر الله طرفة عين، فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسل لقبض روحه ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] فهناك يزول الخوف.

ومنها: انخلاع قلبه، وتقطعه ندمًا وخوفًا، وهذا على قدر عظم الجناية وصغرها[(١)].

وقول الشيخ: (وإذا أذنب استغفر) كقول نوح عليه السلام لقومه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠]. **فالاستغفار المفرد** كالتوبة، بل هو التوبة بعينها، مع تضمنه طلب المغفرة من الله، وهو محو الذنب، وإزالة أثره، ووقاية شره، لا كما ظنه بعض الناس أنها الستر، فإن الله يستر على من يغفر له ومن لا يغفر له[(٢)]، وهذا الاستغفار هو الذي يمنع العذاب في **قوله**: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[الأنفال: 33].

فإن الله لا يعذب مستغفرًا، وأما من أصر على الذنب، وطلب من الله مغفرته، فهذا ليس باستغفار مطلق، ولهذا لا يمنع العذاب، **فالاستغفار يتضمن التوبة، والتوبة تتضمن الاستغفار، وكل منهما يدخل في مسمى الآخر عند الإطلاق.**

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٢٠٠-٢٠١، ٢٠٣).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٣١٤).

وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى، فالاستغفار: طلب وقاية شر ما مضى، **والتوبة**: الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله. **فهاهنا ذنبان**: ذنب قد مضى، فالاستغفار منه: طلب وقاية شره، وذنب يخاف وقوعه، فالتوبة: العزم على ألا يفعله، **والرجوع إلى الله يتناول النوعين** رجوع إليه ليقيه شر ما مضى، ورجوع إليه ليقيه شر ما يستقبل من شر نفسه وسيئات أعماله. **وأيضًا** فإن المذنب بمنزلة من ركب طريقا تؤديه إلى هلاكه، ولا توصله إلى المقصود، فهو مأمور أن يوليها ظهره، ويرجع إلى الطريق التي فيها نجاته، والتي توصله إلى مقصوده، وفيها فلاحه.

فهاهنا أمران لا بد منهما: مفارقة شيء، والرجوع إلى غيره، فخصت التوبة بالرجوع، والاستغفار بالمفارقة، وعند إفراد أحدهما يتناول الأمرين، ولهذا جاء - والله أعلم - الأمر بهما مرتبًا بقوله: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾[هود: ٣] فإنه الرجوع إلى طريق الحق بعد مفارقة الباطل.

وأيضا فالاستغفار من باب إزالة الضرر، والتوبة طلب جلب المنفعة، فالمغفرة أن يقيه شر الذنب، والتوبة أن يحصل له بعد هذه الوقاية ما يحبه، وكل منهما يستلزم الآخر عند إفراده، والله أعلم[(١)].

وقول الشيخ: «**فَإِنَّ هَؤُلاءِ الثَّلاثُ عُنْوَانُ السَّعَادَةِ**»:

---

(١) مدارج السالكين(١/ ٣١٥).

أي: تدل عليها، وترشد إليها، وهي علامة فلاحه في دنياه وأخراه، ولا ينفك عنها العبد أبدًا، فهو دائم التقلب بين هذه الثلاث الأحوال(١).

الحنيفية ملة إبراهيم: عبادة الله بإخلاص

قال- رحمه الله-: إِعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ: أَنَّ الحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ، وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

قوله: (اعلم) : فعل أمر من : العلم ، وهو حكم الذهن الجازم المطابق للواقع، أي: كن متهيئاً ومتفهماً لما يلقى إليك من العلوم . وكلمة (اعلم) يؤتى بها عند ذكر الأشياء المهمة الذي ينبغي للمتعلم أن يصغي إلى ما يلقى إليه منها، وما قرَّرَه المصنف هنا من أصول الدين حقيق بأن يهتم به غاية الاهتمام، ويعتني به أشد الاعتناء، ويصغى إليه حقيقة الإصغاء(٢).

---

(١) الوابل الصيب ص ١١ بتصرف وزيادة.

(٢) انظر: حاشية ابن قاسم رحمه الله ص ١٢-١٣

والمراد بالعلم: العلم الشرعي الذي يفيد معرفة ما يجب على المكلف من أمر دينه في عباداته ومعاملاته، والعلم بالله وصفاته وما يجب له من القيام بأمره وتنزيهه عن النقائص ... [١] .

قوله:(أَرْشَدَكَ اللهُ): دعاء للمُتَعَلِّم بأن يَهْديه الله إلى طاعته سبحانه ويوفقه لسلوك سبيلها .

وعرف –الرشد– ابن رجب بأنه طاعة الله ورسوله [٢] .

وقسم ابن رجب الناس ثلاثة أصناف : راشد، وغاو، وضال، **فالراشد** عرف الحق واتبعه ، **والغاوي** عرفه ولم يتبعه ، **والضال** لم يعرفه بالكلية، فكل راشد فهو مهتد، وكل مهتد هداية تامة فهو راشد؛ لأن الهداية إنما تتم بمعرفة الحق والعمل به أيضًا [٣] . **والرشد** هو العلم بما ينفع، والعمل به، **والرشد، والهدى إذا أفرد كل منهما تضمن الآخر، وإذا قرن أحدهما بالآخر فالهدى هو العلم بالحق، والرشد هو العمل به، وضدهما: الغي واتباع الهوى** [٤] .

---

(١) فتح الباري (١/٨).

(٢) شرح حديث شداد ص ٢٩

(٣) جامع العلوم والحكم ج١/ص٢٦٦

(٤) إغاثة اللهفان ج٢/ص١٦٨

وقوله: (لِطَاعَتِهِ):(الطاعة): موافقة أمر الشرع بفعل المأمور، وترك المحظور. وهي إذا أضيفت لله كانت بمعنى العبادة، ولا فرق بينهما، وقد تضاف إلى غير الله. وتجوز الطاعة لغير الله تعالى **لقوله تعالى** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾[النساء:٥٩]، أما العبادة فلا تجوز لغيره سبحانه.

قوله : (أَنَّ الْحَنِيفِيَةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ) : أدلة هذه الفقرة كثيرة منها:

- **قولـــه تعـــالى**: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ **[البقرة/١٣٥]** .
- **وقوله تعالى**:﴿ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [آل عمران/٦٧]. وغيرها من الآيات.

والحنيفية مُشْتَقَّة من: الحَنَف.

قال شيخ الإسلام : الحنف الميل عن الشيء بالإقبال على آخر، فالدين الحنيف هو الإقبال على الله وحده، والإعراض عما سواه، وهو الإخلاص.(١)

(١) مجموع الفتاوى ج٩/ص٣١٩ -والفتاوى الكبرى ج١/ص٣٣٧.

ويُقْصد بالحنيفية: مِلَّة إبراهيم عليه السلام أي: الملة المائلة عن الشرك، المبنية على الإخلاص لله -عزّ وجلّ، وهو التوحيد وعبادة الله وحده - كما عرفها المصنف هنا بقوله: **" أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّيْن "**.

و(الملة) هي: الدِّيْن وهي مجموعة أقوال وأفعال واعتقاد (١).

وهي اسم لكل ما شرعه الله تعالى لعباده على ألسنة أنبيائه عليهم الصلاة والسلام (٢).

الفرق بين الملة والدين

وبين (الملة) و(الدين) فروق ذكرها الراغب الأصبهاني فقال:

والفرق بينها وبين الدين أن (الملة) لا تُضَاف إلا إلى النبي عليه الصلاة والسلام الذي تُسْنَد إليه، نحو: ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [آل عمران:٩٥]. ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ﴾ [يوسف:٣٨]

ولا تكاد توجد مضافة إلى الله ، ولا إلى آحاد أُمَّة النبي ﷺ ، ولا تُسْتَعْمَل إلا في جملة الشرائع دون آحادها، لا يقال : مِلَّة الله ، ولا يقال : مِلَّتي ومِلَّة زيد ، كما يقال: دين الله ودين زيد ، ولا يقال : الصلاة مِلَّة الله (٣).

---

(١) تحفة المودود ص١٧٨.

(٢) المفردات في غريب القرآن للأصفهاني ص٤٧١.

(٣) المفردات في غريب القرآن للأصفهاني(ص٤٧١-٤٧٢).

قوله:(أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّيْن ...): (العِبَادَةُ) في اللغة: الذُّلُ والخُضُوعُ؛ يقال : طريق مُعَبَّد: إذا كان مُذَلَّلا بوَطْءِ الأقدام، ويقال: عَبَدَ اللهَ عِبَادَةً، وعُبُودِيَّةً: انقاد له، وخَضَعَ، وذَلَّ [(١)].

تعريف العبادة

وهي شرعًا ما ذكر شيخ الإسلام: من أنها اسم جامع لكل ما يُحِبُّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة [(٢)].

وقوله:(وحده مخلصاً لَهُ الدِّيْن): لأن العبادة لابد أن تكون خالصة لله تعالى، وهي العبادة المأمور بها شرعًا.

والإخلاص: هو تصفية العمل بصالح النية عن جميع شوائب الشرك [(٣)] فلا يمازج هذا العمل شيء من شوائب إرادات النفس، إما طلب التزين في قلوب الخلق، وإما بطلب مدحهم، والهرب من ذمهم، أو طلب تعظيمهم، أو طلب أموالهم، أو خدمتهم، و محبتهم، وقضائهم حوائجه أو طلب محبتهم له أو غير ذلك من العلل والشوائب التي عقد متفرقاتها هو إرادة ما سوى الله بعمله كائنا ما كان [(٤)].

---

(١) انظر: أساس البلاغة للزمخشري(ص٤٠٦)، المعجم الوسيط (ص٥٧٩).

(٢) العبودية (ص٢٣).

(٣) معارج القبول ج٢/ص٤٢٣.

(٤) مدارج السالكين (٢/٩٢).

فحقيقة الإخلاص: أن يخلص العبد لله، في أقواله، وأفعاله، وإرادته، ونيته؛ وهذه هي: الحنيفية [١].

قوله: كما قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]

قال الشنقيطي : إلا لآمرهم بعبادتي وأبتليهم، أي: أختبرهم بالتكاليف، ثم أجازيهم على أعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر [٢].

قال -رحمه الله-: فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ اللهَ خَلَقَكَ لِعِبَادَتِهِ؛ فَاعْلَمْ أَنَّ الْعِبَادَةَ لا تُسَمَّى عِبَادَةً إِلا مَعَ التَّوْحِيدِ، كَمَا أَنَّ الصَّلاةَ لا تُسَمَّى صَلاةً إِلا مَعَ الطَّهَارَةِ، فَإِذَا دَخَلَ الشِّرْكُ فِي الْعِبَادَةِ فَسَدَتْ، كَالْحَدَثِ إِذَا دَخَلَ فِي الطَّهَارَةِ، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [التوبة:١٧].

قوله:(العبادة لا تُسَمَّى عبادة إلا مع التوحيد): التوحيد تَفْعِيل من: وَحَّده توحيداً، إذا حكم بوحدانيَّة الشيء، أي: أنَّ ذلك الشيء: واحدٌ فَرْد.

---

(١) الدرر السنية (٣ / ٢٩٠)

(٢) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن (٧/ ٤٤٤-٤٤٥).

قال السفاريني: والتوحيد تفعيل للنسبة كالتصديق والتكذيب، لا للجعل، فمعنى وحدت الله: نسبت إليه الوحدانية، لا جعلته واحدا، فإن وحدانية الله -تعالى -ذاتية له ليست بجعل جاعل(١).

والمؤلف-رحمه الله-يعني بـ(التوحيد) هنا: توحيد العبادة، وهو توحيد الألوهية، بدليل أنه فسر التوحيد بالعبادة. وهو: إفراد الله سبحانه بالعبادة.

وقال شيخ الإسلام-رحمه الله -: أما التوحيد الذي ذكره الله في كتابه، وأنزل به كتبه، وبعث به رسله، واتفق عليه المسلمون من كل مِلَّة: فهو كما قال الأئمة: شهادة أن لا إله إلا الله، وهو عبادة الله وحده لا شريك له(٢).

قوله:(كما أن الصلاة لا تسمى صلاة إلا مع الطهارة) أي: أن الصلاة لا تَصِحّ إلا مع الطهارة من الحَدَث، **لقوله تعالى:**﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ﴾[المائدة:٦]. **قال ابن كثير -رحمه الله-:** قال كثير من السلف: قوله﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾معناه: وأنتم مُحْدِثون(٣).

---

(١) لوامع الأنوار البهية ص ٥٦-٥٧.

(٢) التِّسْعِيْنِيَّة (ص٢٠٨).

(٣) تفسير ابن كثير (٣/٤٣).

ولقول النبي -ﷺ-: **لا يَقْبل الله صلاةَ أحدِكم إذا أحْدَث حتى يَتَوَضَّأ**. **أخرجه البخاري (١٣٥) ومسلم (٢٢٥).**

قوله: (فإذا دخل الشرك في العبادة فَسَدَتْ ...):

والشرك هو: جعل حقٍّ من حقوق الله تعالى لغيره[(١)]. أو: مساواة غير الله بالله فيما هو حق لله وخاص به[(٢)].

فعنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-قال: قُلْتُ: يا رسُولَ الله أيُّ الذَّنْبِ أعْظَمُ؟ قال: **أنْ تَجْعَلَ لله نِدًّا وهُوَ خَلَقَكَ**. رواه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

قال-رحمه الله-: فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الشِّركَ إِذَا خَالَطَ العِبَادَةَ أَفْسَدَهَا، وَأَحْبَطَ العَمَلَ، وصارَ صاحبهُ من الخَالِدينَ في النَّار، عَرَفْتَ أَنَّ أَهَمَّ مَا عَليّكَ مَعْرِفَةُ ذَلِكَ؛ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُخَلِصَكَ مِنْ هَذِهِ الشَّبَكَةِ، وهِيَ الشِّركُ باللهِ، وذلك بمَعْرِفَةِ أَرْبَعِ قَوَاعِدَ ذكرهَا الله في كتَابِه.

قوله: فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الشِّركَ إِذَا خَالَطَ العِبَادَةَ أَفْسَدَهَا، وَأَحْبَطَ العَمَلَ..

تضافرت النصوص على أن الشرك إذا خالط العبادة أفسدها وأحبط العمل، **قال تعالى:** ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزُّمَر:٦٥].

---

(١) انظر أضواء البيان(٤/ ٥٦١).

(٢) انظر: تيسير العزيز الحميد (ص٩١)، حاشية ابن قاسم على كتاب التوحيد(ص٥٠).

وقال-سبحانه -: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام:٨٨].

وقال -عز وجل-: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: **أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ.** أخرجه مسلم (٢٩٨٥).

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بنِ مَسْعودٍ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **مَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّار** ...رواه البخاري(١١٦٢)ومسلم(٩٢).

قوله :(عَرَفْتَ أَنَّ أَهَمَّ مَا عَلَيْكَ مَعْرِفَةُ ذَلِكَ) أي: تعرف التوحيد، والشرك المناقض له.

قوله:(لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُخَلِصَكَ مِنْ هَذِهِ الشَّبَكَةِ وهِيَ الشِّركُ باللهِ): يُخَلِّصك من التخليص ، وخَلَّصَهُ من كذا تَخْلِيصاً أي: نَجَّاهُ ،والمعنى: لعل اللهَ يُنْجِيك.

و(الشَّبَكَةُ): شَرَكَةُ الصائد التي يصيد بها، والمعنى: أن للشِّرك شَرَكاً – حبائل الصيد – قد يقع فيه الإنسان، وهو تعبير لطيف يناسب التخويف من الشرك والحذر منه، والحث على العناية بالتوحيد والاهتمام به، فإن أصل (شبكة الشرك) والتي أوقعت صاحبها في الضلال، قائمة على أمرين: سوء الظن بالله، وعدم تقدير الله تعالى حقَّ قدره.

كما **قال المقريزي**: اعلم أنك إذا تأمَّلتَ جميع طوائف الضلال والبدع وجدتَ أصل ضلالهم راجعاً إلى شيئين أحدهما: ظنهم بالله ظن السوء، والثاني: أنهم لم يَقْدُروا الرَّبَ حق قدره[(١)].

قوله:(بِمَعْرِفَةِ أَرْبَعِ قَوَاعِدَ): القاعدة: أصلها في اللغة الثبوت والاستقرار. **وقال في الكشاف:** القاعدة هي الأساس[(٢)] فهي: أساس الشيء وأصوله، حسيّاً كان ذلك الشيء: كقواعد البيت، أو معنوياً: كقواعد الدين أي: دعائمه[(٣)].

قال -رَحِمَهُ اللَّهُ-: الْقَاعِدَةُ الأُولَى: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْكُفَّارَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ الله -ﷺ- مُقِرُّونَ بِأَنَّ اللهَ - تَعَالَى -هُوَ الْخَالِقُ، الْمُدَبِّرُ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَمْ يُدْخِلْهُمْ فِي الإِسْلامِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾[يونس: ٣١].

القاعدة الأولى وشرحها

هذه القاعدة فيها تقرير أن توحيد الربوبية لا يكفي في إيمان العبد وإسلامه.

---

(١) تجريد التوحيد (ص٧٩).

(٢) التبيان في تفسير غريب القرآن ص١٠٨.

(٣) انظر: المفردات في غريب القرآن(ص٤٠٩)، تاج العروس للزبيدي(٢/ ٤٧٣).

فإن توحيد الربوبية لم يحصل فيه نزاع، ولم يحصل فيه خلاف بين الأمم وأنبيائهم فإن جميع كفار قريش يقرون بأن الله هو الخالق الرازق المدبر المحيي المميت ودليل ذلك **قوله تعالى**: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت:٦١]، فهم مقرون بأن الله هو الخالق الرازق المدبر وهذا أمر فطري فطر الله ﷻ الناس عليه عندما أخذ من ظهور آبائهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ فقالوا: بلى. لكن ليعلم أن بين إقرار الموحدين وإقرار المشركين بتوحيد الربوبية فرقًا من وجهين: **الأول**: أن توحيد المؤمنين بالربوبية سالم من الاعتقادات الفاسدة، بخلاف المشركين فمع اقرارهم بتوحيد الربوبية إجمالًا إلا أن لهم اعتقادات باطلة فيه.

والثاني: أن توحيد المؤمنين في الربوبية شامل لجميع أفرادها.

فهم يقرون ويوحدون تفصيلًا بخلاف المشركين فتوحيدهم مجمل غير شامل.

وفي هذه القاعدة ردٌّ على من يقول إن التوحيد هو أن تعتقد أن الله هو الخالق الرازق المدبر المحيي المميت وأن هذا هو التوحيد الذي جاءت به الرسل، ويُنسب هذا القول لأهل الكلام من الأشاعرة وغيرهم.

بل لا يكون صاحبه معصوم الدم والمال حتى يحقق مع ربوبية الله ﷻ ألوهيته، ولذلك قاتل النبي - ﷺ- مشركي العرب، وكفرهم مع أنهم كانوا يعتقدون بأن الله هو الخالق الرازق المدبر المحيي المميت.

قال ابن كثير -رحمه الله-: يحتج الله تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته على وحدانية إلاهيته **فقال تعالى:** ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي : من ذا الذي ينزل من السماء ماء المطر فيشق الأرض شقاً بقدرته ومشيئته فيخرج منها ﴿ حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴾ [عبس:٢٧-٣٠] . أإله مع الله ؟ ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أي: أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهلكم. وقوله:﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ [يونس:٣٢] أي فهذا الذي اعترفتم بأنه فاعل ذلك كله هو ربكم وإلهكم الحق الذي يستحق أن يفرد بالعبادة ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾ أي: فكل معبود سواه باطل لا إله إلا هو واحد لا شريك له﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ أي: فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة ما سواه وأنتم تعلمون أنه الرب الذي خلق كل شيء، والمتصرف في كل شيء [(١)] .

وقال ابن عطية: هذا توقيف وتوبيخ واحتجاج لا محيد عن التزامه، و﴿ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ يريد بالمطر ﴿وَٱلْأَرْضِ ﴾ يريد بالإنبات ونحو ذلك، و﴿يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ لفظ يعم جملة الإنسان ومعظمه حتى أن ما عداهما من الحواس تبع، ﴿ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾ الجنين من النطفة، والطائر من البيضة، والنبات من

---

(١) "تفسير ابن كثير"(٤/٢٣٢).

الأرض إذ له نمو شبيه بالحياة، ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾، مثل البيضة من الطائر ونحو ذلك...، و «تدبير الأمر» عام لهذا وغيره من جميع الأشياء...، ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ لا مندوحة لهم عن ذلك، ولا تمكنهم المباهتة بسواه، فإذا أقروا بذلك ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ في افترائكم، وجعلكم الأصنام آلهة. وقوله تعالى ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾. الآية، يقول: فهذا الذي هذه صفاته ﴿رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي المستوجب للعبادة والألوهية، وإذا كان ذلك فتشريك غيره ضلال وغير حق، وعبارة القرآن في سوق هذه المعاني تفوت كل تفسير براعة وإيجازًا وإيضاحًا، وحكمت هذه الآية بأنه ليس بين الحق والضلال منزلة ثالثة في هذه المسألة التي هي توحيد الله...إلى آخره[(١)].

(١) في "المحرر الوجيز" (٣/ ١١٧).

القاعدة الثانية وشرحها

قال -رحمه الله-: الْقَاعِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: مَا دَعَوْنَاهُمْ وَتَوَجَّهْنَا إِلَيْهِمْ إِلا لِطَلَبِ الْقُرْبَةِ وَالشَّفَاعَةِ.

فَدَلِيلُ الْقُرْبَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر: ٣].

وَدَلِيلُ الشَّفَاعَةِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [يونس: ١٨].

وَالشَّفَاعَةُ شَفَاعَتَانِ: شَفَاعَةٌ مَنْفِيَّةٌ، وَشَفَاعَةٌ مُثْبَتَةٌ.

فَالشَّفَاعَةُ الْمَنْفِيَّةُ: مَا كَانَتْ تُطْلَبُ مِنْ غَيْرِ اللهِ فِيمَا لا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلا اللهُ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وَالشَّفَاعَةُ الْمُثْبَتَةُ: هِيَ الَّتِي تُطْلَبُ مِنَ اللهِ، وَالشَّافِعُ مُكَرَّمٌ بِالشَّفَاعَةِ، وَالْمَشْفُوعُ لَهُ مَنْ رَضِيَ اللهُ قَوْلَهُ وَعَمَلَهُ بَعْدَ الإِذْنِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

هذه القاعدة من أعظم القواعد نفعًا وأكثرها فائدة، وهي أكبر ما يتعلق به القبوريون في سؤالهم ودعائهم للأموات، وهي شبهة قديمة تتجدد في كل زمان يدَّعون أن الأولياء إنما هم شفعاء ووسطاء عند الله ﷻ، نتقرب بهم عند الله ﷻ ويقولون نحن لا نعبدهم ولا نعتقد فيهم النفع والضر.

فبعد أن فرغ المؤلف-رحمه الله-في القاعدة الأولى من تقرير أن شرك المشركين القدامى لم يكن في الاعتراف والإقرار بربوبية الله وإنما في صرف العبادة لغيره، انتقل لبيان وتقرير القاعدة الثانية: وهي أنّ المشركين في الجاهلية ما وحدوا الأصنام والأوثان، وأفردوها بالعبادة، وإنما كانوا يعبدون الله -سبحانه وتعالى-، وما هذه الأصنام والأوثان التي عُبِدت في زمانهم من دون الله إلا وسائط وقربى اتخذوها من أجل أن يتقربوا بها إلى الله تعالى لا من أجل أنها هي التي تنفع وتضر!!

فجعل الشيخ هذه القاعدة جوابًا لما قد يقع في الأذهان لما ذكر في القاعدة الأولى أن كفار قريش كانوا مقرين بالربوبية، فلماذا عبدوا ما عبدوا وهم قد أقروا بربوبية الله فجاءت هذه القاعدة تبين أنهم وإن أقروا بالربوبية لكنهم ما زالوا واقعين في الشرك الذي هو طلب القربى إلى الله، يدعون آلهتهم ويطلبون الشفاعة عندهم، وكأن الشيخ أراد أن يبين لأهل عصره ممن وقع في الشرك بأن شركهم أعظم من شرك الكفار هؤلاء، فإنهم لم يعتقدوا كما اعتقد هؤلاء في

آلهتهم أنها تضر وتنفع بنفسها، بل هي تشفع ويتخـذونها قربـى إلى الله بخـلاف مشركي عصره فإنهم كانوا يعتقدون الضر والنفع من الآلهة التي عبدوها.

قال البكري الشافعي في تفسيره: إذا قلت إذا أقروا بذلك فكيف عبدوا الأصنام؟ قلت: كلهم كانوا يعتقدون بعبادتهم الأصنام عبادة الله، والتقرب إليه، لكن في طرق مختلفة، ففرقة قالت: ليس لنا أهلية عبادة الله بلا واسطة لعظمته، فعبدناها لتقربنا إليه زلفى. وفرقة قالت: الملائكة ذو وجاهة عند الله، اتخذناها أصناماً على هيئة الملائكة لتقربنا إلى الله زلفى، وقالت: جعلنا الأصنام قبلة لنا في العبادة كما أن الكعبة قبلة في عبادته. وفرقة اعتقدت أن لكل صنم شيطاناً متوكلاً بأمر الله، فمن عبد الصنم حق عبادته قضى الشيطان حوائجه بأمر الله، وإلا أصابه الشيطان بنكبة بأمر الله. انتهى كلامه[(١)].

وقوله: الشفاعة:

هي في اللغة من شفع، وهو أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على مقارنة الشيئين.. تقول: كان فرداَ فشفَعْتُه[(٢)].

وقال ابن الأثير-رحمه الله-: يقال :شفَع يَشْفَع شَفاعةً فهو شَافِع وشَفِيعٌ .والمُشَفِّع : الذي يَقْبل الشَّفاعةَ ،والمُشَفَّع: الذي تُقْبَل شفاعتُه..[(٣)]

وتعريفها شرعاً هي: سؤال الشافع الخيرَ لغيره.

---

(١) كشف غياهب الظلام عن أوهام جلاء الأفهام للعلامة سليمان بن سحمان (ص ٤٧) - والفواكه العذاب لحمد بن ناصر بن عثمان بن معمر ص٤٥-٤٦ .

(٢) معجم مقاييس اللغة (٣/ ١٥٥)،وانظر: لسان العرب (٨/ ١٨٤).

(٣) النهاية في غريب الحديث"(٢/ ٤٨٥).

أو: توسط الشافع لغيره بجلب نفع أو دفع ضره، أو رفعه [(١)].

قوله:(والشفاعة شفاعتان: شفاعة منفية ، وشفاعة مثبتة..):

يفيد أن الشفاعة نوعان: مثبتة: وهي التي توافرت فيها شروط الشفاعة. ومنفية: وهي التي لم تتوافر فيها تلك الشروط.

والشفاعة المثبتة لها شرطان ذكرهما المؤلف-رحمه الله- وهما:

١- إذن الله للشافع، قَالَ ﷻ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

٢- رضاه عن المشفوع له: قال ﷻ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[الأنبياء:٢٨].

ولا يرضى الله تعالى إلا عن أهل التوحيد.

قال ابن القيم-رحمه الله-: فهذه ثلاثة أصول...لا شفاعة إلاّ بإذنه ، ولا يأذن إلا لمن رضي قوله وعمله، ولا يرضى من القول والعمل إلا توحيده واتباع رسوله [(٢)].

والناس في أمر الشفاعة على ثلاثة أصناف:

١- صنف غلا في إثباتها: وهم النصارى، والمشركون، وغلاة الصوفية، والقبوريون، حيث جعلوا شفاعة من يعظمونه عند الله يوم القيامة كشفاعته في الدنيا، حيث اعتقدوا أن هؤلاء المعظمين يشفعون استقلالاً.

---

(١) انظر:" النهاية في غريب الحديث"(٢/ ٤٨٥)،"لوامع الأنوار البهية"(٢/ ٢٠٤)،"شرح لمعة الاعتقاد "لابن عثيمين(ص١٢٨)،"الشفاعة" للجديع(ص١٥).

(٢) مدارج السالكين"(١/ ٣٤١).

٢- وصنف أنكر الشفاعة: كالمعتزلة والخوارج؛ حيث أنكروا شفاعة النبي -ﷺ- وغيره لأهل الكبائر، وقصروا الشفاعة على التائبين من المؤمنين، لأن إثبات الشفاعة للفساق ينافي مبدأ الوعيد في مذهبهم الباطل، فهم يرون وجوب إنفاذ الوعيد لمن استحقه، ولا يرون الشفاعة له لا من النبي-ﷺ- ولا من غيره.

٣- وصنف توسط: وهم أهل السنة والجماعة؛ فلم ينفوا كل شفاعة، ولم يثبتوا كل شفاعة، بل أثبتوا من الشفاعة ما دلّ عليه الدليل من الكتاب والسنة، ونفوا منها ما نفاه الدليل؛ فالشفاعة المثبتة عندهم هي التي تطلب من الله ﷻ وهي التي تكون للموحدين بعد إذن الله للشافع ورضاه عن المشفوع له؛ فلا تطلب من غير الله، ولا تكون إلا بعد إذنه ورضاه [(١)].

فهذه الشفاعة يثبتها أهل السنة بأنواعها، بما في ذلك الشفاعة لأهل الكبائر. وأما الشفاعة المنفية عند أهل السنة فهي التي نفاها الشرع، وهي التي تطلب من غير الله استقلالاً، ولم تتوافر فيها شروط الشفاعة.

وجملة القول: إن الشفاعة المنفية هي التي تطلب بغير إذن الله، أو تطلب لمشرك، والشفاعة المثبتة هي التي تكون بعد إذن الله، ولأهل التوحيد.

---

(١) انظر: "شرح مسلم" للنووي (٣/٣٥)،"مجموع الفتاوى" (١/١٤٨)،"فتح الباري"(١١/٣٥٧) "شرح الطحاوية" لابن أبي العز (١/٢٩٣-٢٩٤)، و"لوامع الأنوار" للسفاريني(٢/٢١٢)، و"تيسير العزيز الحميد"(ص٢٧٣-٢٩٧).

القاعدة الثالثة وشرحها

قال -رحمه الله-: الْقَاعِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ النَّبِيَّ -ﷺ- ظَهَرَ عَلَى أُنَاسٍ مُتَفَرِّقِينَ فِي عِبَادَاتِهِمْ، مِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْأَنْبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْأَشْجَارَ وَالْأَحْجَارَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، وَقَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَهُمْ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

هذه قاعدة عظيمة: أن الله -سبحانه وتعالى- لا يرضى الشرك، سواءٌ كان المشرك به ملكاً، أو نبياً، أو ولياً صالحاً، أو جناً، أو شجراً، أو حجراً، أو غير ذلك، فإن الله -تعالى- حرّم الشرك، وحذر منه بجميع أنواعه وصوره.

وأراد الشيخ بهذه القاعدة الرد على المشركين الذين في عصره حيث قالوا في آيات الشرك: "هؤلاء الآيات نزلت فيمن يعبد الأصنام! كيف تجعلون الصالحين مثل الأصنام؟ أم كيف تجعلون الأنبياء أصناما؟ ".فأجابهم الشيخ بهذه القاعدة.

وقوله:(أَنَّ النَّبِيَ ﷺ ظَهَرَ عَلَى أُنَاسٍ مُتَفَرِقِينَ فِي عِبَادَاتِهِمْ..) فليسوا مجتمعين على عبادة واحدة، بل هم طرائق وسبل متعددة في اتخاذ معبوداتهم الباطلة، منهم من يعبد ما ذكره المؤلف، ومنهم من يعبدها جميعاً، ومنهم من يجمع بين بعضها دون بعض، وهذا من قبح الشرك، فأصحابه لا يجتمعون على شيء واحد، بخلاف الموحّدين فإنّ معبودهم واحد - ﷻ - ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾[يوسف:٣٩]. ولاريب أنّ النبي- ﷺ- لم يُفَرِّق بين من يعبد الملائكة،

والصالحين، وبين من يعبد الحجر ، ولم يقل: للذين يعبدون الملائكة: هؤلاء الذين يعبدون الملائكة لا يضر وليس بشرك، لأن لهم منزلة ومكانة عند الله، ولم يقل للذين يعبدون الصالحين : هؤلاء لم يشركوا ، أو أنّ شركهم يختلف عن من عبد الأوثان والأصنام والنجوم والكواكب.. بل إنه ﷺ لم يرضَ الشرك بجميع صوره وأنواعه وحاربه وحذر منه أيما تحذير.

قوله: والدليل قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٩]. أي : الدليل على قتال المشركين من غير تفريق بينهم حسب معبوداتهم؛ قوله تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ ﴾، وهذا عامّ لكل المشركين، لم يُستثن أحدًا، ثم قال:﴿ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ والفتنة : الشرك، أي : لا يوجَد شرك، وهذا عامّ؛ أيَّ شركٍ، سواءً الشرك في الأولياء والصالحين، أو بالأحجار، أو بالأشجار، أو بالشمس، أو بالقمر ﴿ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ : تكون العبادة والطاعة كلها لله، ليس فيها شَرِكَةٌ لأحد كائنًا مَنْ كان، فلا فرق بين الشرك بالأولياء والصالحين أو بالأحجار أو بالأشجار أو بالشياطين أو غيرهم .

قال ابن جرير: يقول -تعالى ذكره-لنبيه محمد ﷺ: وقاتلوا المشركين الذين يقاتلونكم حتى لا تَكُونَ فتنةٌ يعني: حتى لا يكون شرك بالله، وحتى لا يعبد دونه أحد، وتضمحل عبادة الأوثان الآلهة والأنداد، وتكون العبادة والطاعة لله وحده دون غيره من الأصنام والأوثان..(١)

(١) "تفسير الطبري"(٢/١١٢)وانظر: "تفسير ابن كثير"(٤/٤٨).

قال -رحمه الله-: وَدَلِيلُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]. وَدَلِيلُ الْمَلَائِكَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ ....﴾ الآية [آل عمران: ٨٠].

قوله: وَدَلِيلُ الشَّمْسِ والقَمَرِ: ذكر المؤلف -رحمه الله- هاهنا الدليل على تفرق هؤلاء، وتنوع عباداتهم، واختلاف طرائقهم في العبادة.

ثم ذكر الدليل على أنّ هناك مَن يسجُد للشمس والقمر. فهناك مَن يسجُد للشمس عند طلوعها ويسجد لها عند غروبها، وقد جاء النهي أنْ نصليَ في هذين الوقتين -وإنْ كانت الصلاة لله-؛ لِمَا في الصلاة في هذا الوقت من مشابهة لفعل المشركين، فجاء المنعُ من ذلك سدًّا للذريعة التي تُفضي إلى الشرك.

فعَنْ ابْنِ عُمَرَ-رَضِيَ الله عَنْهُمَا- : أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **لَا يَتَحَرَّى أَحَدُكُمْ فَيُصَلِّي عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَلَا عِنْدَ غُرُوبِهَا** . أخرجه البخاري(٥٨٥)، ومسلم(٨٢٨).

وعن أَنَس بْن مَالِك -رَضِيَ اللهُ عَنْه-قال: سَمِعْت رَسُول اللهِ ﷺ يَقُول:

تِلْكَ صَلَاة الْمُنَافِق: يَجْلِس يَرْقُب الشَّمْس حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْن قَرْنَيْ الشَّيْطَان، قَامَ فَنَقَرَهَا أَرْبَعًا لَا يَذْكُر اللهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا . أخرجه مسلم(٦٢٢).

قوله : وَدَلِيلُ المَلَائِكَةِ : ذكر المؤلف-رحمه الله- الدليل على أنّ هناك من عبد الملائكة والنبيين، وأنّ ذلك شرك. **قال ابن كثير-رحمه الله**-في تفسير الآية: أي: ولا يأمركم بعبادة أحد غير الله: لا نبي مرسل ولا ملك مقرب، فضلًا عن غيرهما.

قال -رحمه الله-: وَدَلِيلُ الأَنْبِيَاءِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [المائدة: ١١٦]. وَدَلِيلُ الصَّالِحِينَ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ... ﴾ الآية [الإسراء: ٥٧]. وَدَلِيلُ الأَشْجَارِ وَالأَحْجَارِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ [النجم: ٩١، ٢٠].

قوله: وَدَلِيلُ الأَنْبِيَاءِ: ذكر المؤلف-رحمه الله-الدليل على أن عبادة الأنبياء شرك مثل عبادة الأصنام. وفيه ردٌّ على هؤلاء الذين يقولون: إن الشرك عبادة الأصنام، ولا يسوَّى عندهم بين مَن عبد الأصنام وبين مَن عبد وليّا أو رجلاً صالحًا، وينكرون التسوية بين هؤلاء، ويزعمون أنّ الشرك مقصورٌ على عبادة الأصنام فقط، وهذا من المغالَطة الواضحة. فالله تعالى سَيَسْأَلُ يوم القيامة عيسى بن مريم -مع علم الله تعالى بالجواب، ولكن حتى يكون حجةً على الخليقَة -هل أمر هؤلاء النصارى بعبادته؟ لأنهم يعبدونَهُ من دون الله !! فيتبرأ عيسى بن مريم من هؤلاء، ويُبين أنه إنما دعاهم إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة ، و إلى ترك الشرك والحذر منه كما **قال تعالى:** ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ ﴾ تنزيها لك يا ربّ وتعظيما أن أفعل ذلك أو أتكلم به، ﴿ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾[المائدة : ١١٦].

فيتبرأ عيسى بن مريم -عليه السلام-يوم القيامة من الشرك، بل إنه يتبرأُ من الشرك أيضاً في الدنيا قبل قِيام الساعة حين ينـزل من السماء إلى الأرض ويدعو الناس إلى التوحيد الخالص، ويتبرأُ أيضاً من عُبّاد الصليب، فعن أبي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا ،فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ ،وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ ،وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ ،حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ الْوَاحِدَةُ خَيْرًا مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**».

ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ:﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾[النساء:١٥٩].أخرجه البخاري(٣٢٦٤) واللفظ له، ومسلم(١٥٥).

قوله: ودَلِيلُ الصَّالِحِينَ: أي الدليل على أن هناك من كان يعبد الصالحين من البشر على زمن النبي ﷺ، **قول الله تعالى:** ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ جاء عن عبد الله بن مسعود-رضي الله عنه- في قول الله ﷻ: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ قال: نفر من الجن أسلموا وكانوا يُعبدون، فبَقِيَ الذين كانوا يَعبدون على عبادتهم وقد أسلم النفر من الجن. أخرجه مسلم(٣٠٣٠). **وفي رواية** قال: نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن فأسلم الجنيون، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون؛ فنزلت:﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾.

و﴿ يَبْتَغُونَ ﴾ يطلبون من الله الزلفة والقربة، ويتضرعون إلى الله تعالى في طلب الجنة، وهي الوسيلة. أعلمهم الله تعالى أن المعبودين يبتغون القربة إلى ربهم. والهاء والميم في ﴿رَبِّهِمُ﴾ تعود على العابدين أو على المعبودين أو عليهم جميعاً.

وأما ﴿يَدْعُونَ﴾ فعلى العابدين. و﴿يَبْتَغُونَ﴾ على المعبودين.

﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ ابتداء وخبر. ويجوز أن يكون ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ بدلاً من الضمير في ﴿يَبْتَغُونَ﴾ والمعنى: يبتغي أيهم أقرب الوسيلة إلى الله.﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أي: مَخُوفاً لا أمان لأحد منه؛ فينبغي أن يُحذر منه ويُخاف (١).

وقد دلت الآية على عدم جواز عبادة الصالحين، سواءً كانوا من الأنبياء والصدِّيقين، أو من الأولياء والصالحين، فلا تجوز عبادتهم، لأنّ الكُل عبادٌ لله فقراء إليه، فكيف يُعبدون مع الله ـ جلّ وعلا ـ . وفي الآية رد على من يدعو صالحاً ويقول: أنا لا أشرك بالله شيئاً، الشرك عبادة الأصنام.

قال ابن تيمية في هذه الآية الكريمة، لما ذكر أقوال المفسرين : وهذه الأقوال كلها حق ، فإن الآية تعم من كان معبوده عابداً لله ، سواء كان من الملائكة أو من الجن أو من البشر ، والسلف في تفسيرهم يذكرون تفسير جنس المراد بالآية على نوع التمثيل ، كما يقول الترجمان لمن سأله : ما معنى الخبز ؟ فيريه رغيفاً ، فيقول هذا ، فالإشارة إلى نوعه لا إلى عينه ، وليس مرادهم من هذا تخصيص نوع من شمول الآية ، فالآية خطاب لكل من دعا من دون الله مدعواً ، وذلك المدعو يبتغي الى الله الوسيلة ويرجو رحمته ويخاف عذابه ، فكل من دعا ميتاً أو غائباً من الأولياء والصالحين سواء كان بلفظ الاستغاثة أو غيرها فقد تناولته هذه الآية الكريمة ، كما تتناول من دعا الملائكة والجن ، فقد نهى الله تعالى من دعائهم ، وبين أنهم لا يملكون كشف الضر عن الداعين ولا تحويله ، ولا يرفعونه بالكلية ولا يحولونه من موضع

(١) انظر: "تفسير القرطبي"(١٠/٢٧٩)،"تفسير الطبري"(١٥/٧٢)،"تفسير ابن كثير"(٥/٨١).

إلى موضع ، كتغيير صفته أو قدره ، ولهذا قال : **(ولا تحويلا)** فذكر نكرة تعم أنواع التحويل ، فكل من دعا ميتاً أو غائباً من الأولياء والصالحين أو دعا الملائكة فقد دعا من لا يغيثه ولا يملك كشف الضر عنه ولا تحويله[(١)] .

قال ابن كثير في تفسير الآية: يقول تعالى مقرعاً للمشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد والأوثان، واتخاذهم البيوت لها مضاهاة للكعبة التي بناها خليل الرحمن عليه السلام ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ ﴾[(٢)] .

و﴿ ٱللَّٰتَ ﴾ ـ بتخفيف التاء ـ : اللات بالطائف، وهي أحدث من مَنَاة وكانت صخرةً مُربَّعة بيضاء منقوشة عليها بيت الطائف له أستار وسدنة وحوله فناء معظم عند أهل الطائف ، وهم ثقيف ومن تبعها ، وكان سَدَنتها من ثَقِيف، وكانوا قد بنوا عليها بناء، فكانت قريش وجميع العرب تعظمها. وبها كانت العرب تسمى زيد اللّات وتيمَ اللّات. وكانت في موضع (منارة) مسجد الطائف اليسرى، فلم تزل كذلك إلى أن أسلمت ثَقِيفٌ، فبعث رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة فهدمها وحرّقها بالنار. وقُرئ : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ ﴾ ـ بتشديد التاء ـ اسم فاعل من (لَتَّ يَلُتُّ)، وهو : رجلٌ صالح كان يلُتُّ السَّويق ويُطعمه للحُجّاج، فلمّا مات بنوا على قبره بيتـًا، وأرْخوا عليه الستائر، فصاروا يعبدونه من دون الله ـ ﷻ ـ، هذا هو اللاّت .قال بهذا جماعة من أهل العلم ولا منافاة بين القولين . فإنهم عبدوا الصخرة والقبر تأليهاً وتعظيماً ولمثل هذا بنيت المشاهد والقباب على القبور واتخذت أوثاناً، وفيه بيان أن أهل الجاهلية كانوا يعبدون الصالحين والأصنام.

---

(١) "قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة"(ص٢٦٥، ٢٣١، ٧٩).

(٢) "تفسير ابن كثير"(٧/ ٤٢٢).

﴿ وَٱلۡعُزَّىٰ ﴾:وهي أحدث من الّلات، اتخذها ظالم بن أسعد، وكانت بوادي نَخْلة الشامية فوق ذات عِرْق، فبنوا عليها بيتاً وكانوا يسمعون منها الصوت، وكان هذا الصنم لقريش وأهل مكّة ومَن حولهم .

﴿ وَمَنَوٰةَ ﴾:فكانت بالمشلل عند قديد، بين مكة والمدينة، وكانت خزاعة والأوس والخزرج يعظمونها ويهلون منها للحج، ويعبدونها من دون الله، وأصل اشتقاقها : من اسم الله المنان، وقيل: لكثرة ما يمنى ـ أي يراق ـ عندها من الدماء للتبرك بها (١).

قال -رَحِمَهُ اللَّهُ-: وَحَدِيثُ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ -ﷺ- إِلَى حُنَيْنٍ وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ، وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ، يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا وَيُنَوِّطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ، يُقَالَ لَهَا ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ. الحَدِيثَ.

قال الشوكاني: فهؤلاء إنما طلبوا أن يجعل لهم شجرة ينوطون بها أسلحتهم كما كانت الجاهلية تفعل ذلك، ولم يكن من قصدهم أن يعبدوا تلك الشجرة أو يطلبوا منها ما يطلبه القبوريون من أهل القبور فأخبرهم -ﷺ-أن ذلك بمنزلة الشرك الصريح، وأنه بمنزلة طلب آلهة غير الله (٢).

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير (٣٤/٢٧)، تفسير ابن كثير (٤٢٢/٧)، تفسير البغوي ٢٤٩/٤، إغاثة اللهفان (٢/٢١١-٢١٢)، فتح المجيد (١/٢٥٣-٢٥٥).

(٢) الدر النضيد من الفتح الرباني من فتاوى الإمام الشوكاني (١/ ٣٢١).

وفي هذا بيان أن عبادتهم لها بالتعظيم والعكوف والتبرك، وبهذه الأمور الثلاثة عبدت الأشجار ونحوها، **قال ابن القيم:** فإذا كان اتخاذ هذه الشجرة لتعليق الأسلحة والعكوف حولها اتخاذ إله مع الله تعالى، مع أنهم لا يعبدونها، ولا يسألونها. فما الظن بالعكوف حول القبر، والدعاء به ودعائه، والدعاء عنده؟ فأي نسبة للفتنة بشجرة إلى الفتنة بالقبر؟ لو كان أهل الشرك والبدعة يعلمون(١).

قال شيخ الإسلام: فلا يجوز أن يتخذ شيء من القبور، والآثار، والأشجار، والأحجار، ونحوها بحيث يرجى نفعه، وبركته بالنذر له، والتمسح به، أو تعليق شيء عليه...بل كان هذا من جنس الشرك. انتهى(٢).

وفيه: أن الاعتبار في الأحكام بالمعاني لا بالأسماء، ولهذا جعل النبي -صلى الله عليه وسلم- طلبهم كطلب بني إسرائيل، ولم يلتفت إلى كونهم سموها ذات أنواط، فالمشرك مشرك، وإن سمى شركه ما سماه، كمن يسمى دعاء الأموات والذبح والنذر لهم ونحو ذلك تعظيماً ومحبة، فإن ذلك هو الشرك، وإن سماه ما سماه. وقس على ذلك(٣).

---

(١) إغاثة اللهفان (١/٢٠٥).

(٢) مختصر الفتاوى المصرية (ص: ٥٥٠).

(٣) "فتح المجيد"(١/٢٦٢-٢٦٣) وانظر: "كشف الشبهات"(ص١٧٥) ضمن مؤلفات الإمام.

القاعدة الرابعة وشرحها

قال -رحمه الله-: الْقَاعِدَةُ الرَّابِعَةُ:

أَنَّ مُشْرِكِي زَمَانَنَا أَغْلَظُ شِرْكًا مِنَ الأَوَّلِينَ، لأَنَّ الأَوَّلِينَ يُشْرِكُونَ فِي الرَّخَاءِ، وَيُخْلِصُونَ فِي الشِّدَّةِ، وَمُشْرِكُو زَمَانَنَا شِرْكُهُمْ دَائِمٌ فِي الرَّخَاءِ وَالشِّدَّة؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]. وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعلى آله وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

هذه هي القاعدة الرابعة ـ وهي الأخيرة: وفيها يقرر المؤلف -رحمه الله-أنّ مشركي زماننا أعظمُ شركـًا من الأوّلين الذين بُعث إليهم رسول الله ﷺ.

وتتلخص الفروق بينهما فيما يلي :

١- أن مشركي زماننا شركهم في الرخاء والشدة، أما شرك الأولين فكان في الرخاء، أما الشدة فيخلصون لله تعالى كما قال سبحانه: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

٢- أن شرك المتأخرين في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، ويعتقدون لآلهتهم تصرفًا في الكون، نفعًا وضرًا، وعامة شرك الأولين في الألوهية فقط، ويقل في غيرها.

٣- أن المتأخرين يدعون الفجار والفسقة وغيرهم ويعتقدون فيهم الولاية والتصرف في الكون، بينما كان الأولون يدعون غالبًا الملائكة والأنبياء والصالحين.

٤- أن المتأخرين زادوا مع شركهم جحد صفات الباري ونفيها عن الله وتجريده من الأسماء فلا يثبتون له الأسماء ولا الصفات، وكان بعض الأولين من المشركين يثبتون بعض الأسماء والصفات.

وقوله تعالى: (دَعَوُا اللهَّ ..): الآية يدل على أنّ كلّ داع عابد، فكل من دعا الله وسأله فهو عابد له، وكل دعاء ذكره الله تعالى في كتابه فهو يشمل في الغالب دعاء المسألة، ودعاء العبادة.

فدعاء العبادة: هو طلب الثواب بالأعمال الصالحة؛ كالنطق بالشهادتين والعمل بمقتضاهما، والصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، والذبح لله، والنذر له، وبعض هذه العبادات تتضمن الدعاء بلسان المقال مع لسان الحال كالصلاة.

فمن فعل هذه العبادات وغيرها من أنواع العبادات الفعلية فقد دعا ربه وطلبه بلسان الحال أن يغفر له، والخلاصة أنه يتعبد لله طلباً لثوابه وخوفاً من عقابه.

وهذا النوع لا يصح لغير الله تعالى. ومن صرف شيئاً منه لغير الله فقد كفر كفراً أكبر مخرجاً من الملة، وعليه يقع **قوله تعالى**: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] .

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وأما دعاء المسألة: وهو دعاء الطلب: فهو طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع أو كشف ضر، وطلب الحاجات، ودعاء المسألة فيه تفصيل على النحو التالي:

أ- إذا كان دعاء المسألة صدر من عبد لمثله من المخلوقين وهو قادر حي حاضر فليس بشرك. كقولك: اسقني ماءً، أو يا فلان أعطني طعاماً، أو نحو ذلك فهذا لا حرج فيه، ولهذا قال -ﷺ-: «**مَنْ اسْتَعَاذَ بِاللهِ فَأَعِيذُوهُ، وَمَنْ سَأَلَ بِاللهِ فَأَعْطُوهُ، وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ، وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ**»(١).

ب- أن يدعو الداعي مخلوقاً، ويطلب منه ما لا يقدر عليه إلا الله وحده، فهذا مشرك كافر سواء كان المدعو حيّاً أو ميتاً، أو حاضراً أو غائباً، كمن يقول: يا سيدي فلان اشف مريضي، رد غائبي، مدد مدد، أعطني ولداً، وهذا كفر أكبر مخرج من الملة، **قال الله تعالى:** ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام:١٧]. **وقال تعالى:** ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الأحقاف:٥].

ودعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة. ودعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة. ويراد بالدعاء في القرآن دعاء العبادة تارة، ودعاء المسألة تارة، ويراد به تارة مجموعهما(٢).

تم بحمد الله وتوفيقه في ليلة الإثنين من شهر جماد الأول ١٤٢٩ للهجرة النبوية .

---

(١) أخرجه أبو داود (١٦٧٢)و(٥١٠٩) وغيره من حديث عبدالله بن عمر-رضي الله عنهما - وصححه العلامة الوادعي في الصحيح المسند، والعلامة الألباني في "السلسلة الصحيحة"(٢٥٤).

(٢) انظر: "فتح المجيد"(١/٣١٦-٣١٩).

الفهرس الموضوعي

مقدمة..... ٣
شرح معنى الولاية وأقسامها..... ٥
أفضل الأولياء..... ٦
أحوال لا ينفك عنها العبد..... ٩
الحنيفية ملة إبراهيم عبادة الله بإخلاص ١٦
القاعدة الأولى وشرحها ٢٥
القاعدة الثانية وشرحها..... ٢٩
القاعدة الثالثة وشرحها..... ٣٤
القاعدة الرابعة وشرحها..... ٤٣
الفهرس الموضوعي ٤٦